

# الحب بين تراثين

## التروبادورز الفرنسيون والعشاق العذريون

مقدمة تاريخية :

### كيف انتقلت الافكار العربية الى اوروبا

في مقاطعة بروفنس الفرنسية المناخمة للحدود الاسبانية ، وفي القرن الحادي عشر الميلادي ، شاع نوع من شعر الحب او الغزل كما نسميه في اللغة العربية . هذا الشعر كان غريبا عن الفكر الاوربي انذاك ، غريبا بأوزانه وغريبا بالافكار التي احتواها وعبر عنها . اما الاسم الذي اطلق على شعراء هذه المدرسة فهو التروبادورز ، Troubadours ، وسمي شعراء بروفنسال Provencale نسبة الى بلدتهم ، ثم عرف الحب الذي عبروا عنه في اشعارهم باسم كورتلي Courtly Love

لهذا الشعر اهمية عظيمة في تاريخ الادب الاوربي ، اذ يعتقد الادباء الغربيون المعاصرون ان الاراء والافكار التي عبر عنها هذا الشعر كان لها المكانة الاولى في تكوين خلفية الادب الاوربي طيلة القرون التسعة الماضية ، هذا من الوجهة الادبية ، اما من الناحية الاجتماعية فان هؤلاء النقاد يعترفون بان الاراء التي جاء بها التروبادورز في اشعارهم تكون الحجر الاساسي في اصول اللياقة ( الاتيكيت في اوروبا ، حتى ان فكرة تقديم المرأة واحترامها السائدة في المجتمع الغربي اليوم لم تكن الا بتأثير ما اتى به التروبادورز في اشعارهم ، اذ انها الاراء التي خلقت اوروبا الحديثة كما يقول لويس وسنجر وغيرهما . (1)

لطرافة وغرابة الاراء التي جاء بها التروبادورز من جهة ، وللان العظيم الذي تركه شعراء في الفكر الاوربي من جهة اخرى ، قام عدد كبير من ادباء الغرب ومفكره بتحليل هذا الشعر والتنقيب عن اصله ومورده بين الافكار التي كانت نشأة في زمانه وفي الازمنة التي سبقتة . فمنهم من يعود به الى الاغريق ، ومنهم من يوميء الى الشاعر الروماني اوفد Ovid ، وفريق منهم يذكر المسيحية ، واخرون يذكرون اثر الادب العربي في تكوين ذلك الشعر ، ولكن رأيا واحدا لم يثبت حتى الان ، وفندت النظريات المطروحة في هذا الشأن لسبب او اخر . (2)

(1) I. Singer , The Nature of love, Plato to luther , (1)  
See also , C. S. Lewis , The Allegory of love , 2 - 7

(2) انظر خلاصة الابحاث عن الموضوع في :

T. Silverstein, « Andreas , Plato, and the Arabs,»  
Modern philology , XLH ( 1,42-50 ) , 117 - 126 ,

ان الغرض الاساسي من هذا البحث هو دعم النظرية الفائلة ان التروبادورز تأثروا بالادب العربي . وطريقتي هنا تقوم على عرض اوجه التشابه والتلاقي بين آرائهم وراء الشعراء العرب في الحب ، كما وردت تلك الاراء والافكار في شعر الطرفين من جهة ، وفيما اورده الكتاب والفلاسفة عن الحب في كل من العالمين العربي والاوربي انذاك من جهة اخرى . ولان التشابه في الفكر وحده لا يحدد اصل تلك الفكرة وموردها ، فقد لا يعدو ان يكون في نظر البعض ضربا من المصادفة وتوارد الخواطر لا سيما في موضوع كوني كالحب ، لذلك وجب ان ندعم التشابه الذي نسمي لابطائه بحقائق اخرى لا نقل عنه خطورة . واهم تلك الحقائق واجبرها بالاعتبار ما يلي :

1 - غرابة الاراء الواردة في شعر التروبادورز عن التراث الاوربي حتى القرن الحادي عشر الميلادي من جهة ، ووجودها كجزء اساسي في الادب العربي قبل ذلك التاريخ بما يزيد على اربعة قرون من جهة اخرى .

2 - الطرق والوسائل التي تسربت بها تلك الافكار من العرب الى اوروبا ولا سيما خلال الوجود العربي في القارة الاوربية .  
اما غرابة اراء التروبادورز في الحب عن التراث الاوربي فقد ايدوا الكثيرون ممن اقتصوا بالكتابة في هذا الحقل من نقاد اوروبا واميركا المعاصرين . فقد كتب شارلس لويس في كتابه الشهير The Allegory of love ما يلي :

ان الحب قد يكون - في ظروف خاصة - عاطفة نبيلة ونحمل على الشبل . ذلك مبدأ نقبله الان . اما اذا تصورنا اننا نشرح ذلك المبدأ لارسطو ، فرجيل ، القديس بول ، او المؤلف بيولوف ، حينذاك نحس ان ذلك المبدأ ابعدهما يكون عن طبيعة الاشياء . (3)  
وينظر موريس فالينسي الى حب التروبادورز نظرة مشابهة لصاحبه الكاتب الانكليزي لويس ، اذ يقول :

ان المذهب الذي اتبعه التروبادورز في اشعارهم في القرن الثاني عشر الميلادي يختلف اختلافا جوهريا عما افصحته عنه تلك النماذج البدائية من شعر الحب الواردة في تراثنا . والغريب ان شعر التروبادورز في تمجيد المرأة وجد وازدهر في مجتمع ينظر الى المرأة كمخلوق ناقص العقل ومسبب للضرر والقلق . (4)

Lewis , op. cit . , 3 .

(3)

M. Valency , In Praise of love, 1.

(4)

ويحدثنا الاديب الفرنسي دنيس دي رجمنت عن بدعتين جديدتين  
ظهرتا في اوربا لأول مرة خلال شعر التروبادورز ، ويتساءل الكاتب  
المذكور ان كانت نابت البنعان قد هبطتا على اوربا من السماء . اما  
البدعتان فهما :

صورة للمرأة مغايرة تماما ما عهدناه في تراثنا - امرأة تسبو  
وكانها ارفع من الرجل ، وكانها هدفه الاعلى المنشود ، هذا من جهة ،  
ومن جهة اخرى ، هذا التسعر ، جديد ، الا انه منظور عميق مهذب ،  
تسعر غير معروف لدى القدامى (٥)

ويقرب أرفنك سنجر لويس ورجمنت في نظرتهم الى موطن  
الغرابه في شعر التروبادورز وفي حبه . فيذكر ان اغرب ما في  
ذلك الشعر هو اتخاذ المرأة هدفا ساميا يحق للرجل تمجيده وبذل  
النفس والنفيس في سبيله . يقول سنجر :

كان المجتمع الافريقي يعتبر الحب ظاهرة رجالية فقط ، علاقة  
رجل برجل . اما علاقة الرجل بالمرأة فلا تعدو الجانب الجسدي ، وما  
كانت يوما تأملا روحيا . قد تصل تلك العلاقة الى درجة من  
الانسجام والنهذيب ، ولكنها ما كانت يوما محلا للتبجيل ، ولا شيء  
لدى الافريقي اجدر بالاحتفاء والاشمئزاز من منظر رجل يفني نفسه  
في سبيل الحصول على امرأة . (٦)

ثم يعود سنجر فيفني اية علاقته تشابه بين التروبادورز وبين  
اوفيد ، لان الاخير - على رأي سنجر غريب كل الغرابه عن التروبادورز ،  
فهدنهم في انجب نبيل خلاق ، بينما هدف اوفيد محدد الافق . ويستورد  
سنجر قائلا : « ان الشاعر الانكليزي جوسر يؤكد ان الحب مشروع  
جدي ، ولكن جدية الحب امر مخجل بنظر اوفيد » . (٧)

اما نظرة المسيحية الى حب التروبادورز فلم تكن بخير مما ذكره  
الكتاب الذين اشرنا اليهم سابقا . فالمرأة التي يمجدها التروبادورز  
هي بنظر المسيحية ام الخطيئة ، وهي وراء حرمان آدم من الجنة ،  
لذلك يؤكد الاب الكسندر دنومي ان القانون السندي ابتدعه  
التروبادورز في الحب والذي كتب بموجبه الشاعر الانكليزي جوسر  
قصته الشهيرة ترويلس وكريسييدا Troilus an Criseyde  
ذلك القانون الاخلاقي ، بعيد كل البعد عن التعاليم المسيحية التي  
تعتبر مثل هذا الحب كفرا ، وقد لعنته الكنيسة قبل ان يكتب جوسر  
قصته بمئات السنين . (٨)

ان العرض السريع لآراء الكتساب والنقاد الغربيين في حب  
التروبادورز ليعطينا الدليل الواضح على ان ذلك الحب كان حدثا  
غريبا عن التراث الاوربي . ولكن المطلع على التراث العربي يجد ان  
مثل هذا الحب يشكل جزءا لا يتجزأ منه . ان اشعار الفزل والنسيب  
التي سوف نتمثل بها في معرض المقارنة في الفصول الالية لتشكل  
اهم جزء من تاريخ الادب العربي منذ ان عرفنا ذلك التاريخ . فهناك  
اخبار واشعار تروي لشعراء عشاق في الجاهلية والاسلام وفي العصر  
الاموي وزمن العباسيين واما الاندلس . نذكر من هؤلاء الشعراء الذين  
شهروا بالعشق منذ الجاهلية وفي زمن الدولة الاموية المرقش الاكبر  
وصاحبته اسماء ، عبدالله بن عجلان صاحب هند ، الصمة صاحب ربا ،  
عروة بن حزام وصاحبته عفراء ، مجنون ليلي ، جميل بثينة ، كثير عزة ،  
قيس لبي ، توبة وصاحبته ليلي الاخيلية وغيرهم . وحين ينقضي

- (٥) D. Rougemont, Passion and Society , 76 .  
Singer , op. cit . , 51 - 52 .  
(٦) Ibid . , 147 .  
(٧) A. Denomy , « The Two Moralities of chaucer,s  
(٨) Troilus and Criseyde , » Transaction of the Royl Society  
of Canada , XLIV , sec . 2 ( 1750 ) , 35 - 46 .

عهد العدييين ورهطهم ، تستمر اهانهم وخلجات قلوبهم فتتمازج  
مع اهات شعراء عشاق اخرين كالباس بن الاخنف في بفسناد  
( ٧٥٠ - ٨٠٨ ) وابن زيون في الاندلس ( ١٠٠٢ - ١٠٧١ ) . (٩) هذا  
ما يجده المطلع على تاريخ الادب العربي . اما في اوربا فان اقدم  
تروبادور عرف في تاريخ الادب الاوربي هو وليم التاسع كونت بواتيه ،  
وقد حكم من ( ١٠٨٧ - ١١٢٧ ) . (١٠)

ما سبق تظهر لنا جليا حقيقة اسبقية التراث العربي باختوائه  
على شعر الحب وحكايات المحبين واخبارهم . بقي ان نذكر الوسائل  
التي يحتتمل ان تكون الآراء والافكار التي احتواها ادبنا قد تسربت  
بها الى الغرب . ومن المعروف ان تسرب اية فكرة وانتقالها يتم  
باحدى الوسيلتين الاتيتين :

- ١ - التماس المباشر بين الشعوب عن طريق اللقاء والسماع  
والقراءة ، وذلك يتطلب بالدرجة الاولى معرفة اللغة .
- ٢ - التماس غير المباشر وذلك عن طريق الترجمة .

لقد تم تسرب الآراء والفكر التي احتواها الادب العربي وانتقالها  
الى الغرب بالطريقتين المباشرة وغير المباشرة معا . فقد تملك العرب  
الاراضي الاوربية واستوطنوها حقبة تقارب ثمانية قرون ، ابتداء من  
عبور القائد طارق بن زياد المصيق المعروف باسمه الى اسبانيا سنة  
٧١١ م . اذ تلا ذلك الفتح الاسلامي لمعظم اسبانيا ، حيث استقروا  
هناك واسسوا ملكا ومجدا وحضارة استمرت حتى سقوط غرناطة على  
ايدي فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٨٤ م . وكان العرب من جهة اخرى  
يحتلون معظم جزر البحر المتوسط والشواطئ الايطالية ولهم ممتلكات  
في قلب ايطاليا استمرت ما يزيد على ثلاثة قرون . (١١)

لقد اعترف الاوربيون انفسهم بان اللغة العربية كانت تنتشر في  
الاقطار المفتوحة بسرعة معجزة حتى لكانها النار في الهشيم ، (١٢)  
الامر الذي دعا الاساقفة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية  
سنة ٧١٩ م وذلك لاجل الشباب المسيحي الذي بدأ يفقد لسانه  
اللاتيني . (١٣) وهناك اكثر من دليل يثبت مدى انتشار اللغة العربية  
بين المواطنين الاوربيين ، منها الكتاب الذي الفه اسيدور الاشبيلي  
في علم الصرف والاشتقاق اللاتيني Isidore,s Etymologia  
فقد جاء الكتاب المذكور معززا بهوامش وشروح باللغة العربية لتفسير  
وتوضيح ما اشكل فهمه من المفردات اللاتينية . (١٤) اما الشكوى التي  
اطلقها اسقف قرطبة فتدل دلالة واضحة على مدى اهتمام الشباب  
الاوربي انذاك وشغفه باللغة العربية وادابها وغناها ، الامر الذي  
كان يمتوهم الى اهمال ونسيان تراثهم ودينهم . يقول الفارو عن  
مسيحي اسبانيا :

هل يوجد بين المواطنين الامناء من اجهد نفسه كي  
يتعلم ويفهم الكتاب المقدس ، او يقرأ ما كتبه

- (٩) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، كتاب الامالي للقالبي ،  
خزانة الادب للبغدادي ، تزيين الاسواق للانطاعي ، وانظر كذلك : تاريخ  
الادب العربي لشوقي صيف ، وحديث الاربعاء لطف حسين :  
The Encyclopedia Britannica , Vol. 27,309 (١٠)

- (١١) انظر الكامل في التاريخ لابن الاثير ، تاريخ العرب لفيليب  
حتى ، وانظر Cambridge Medieval History , Vol . 29.387  
(١٢)

H. Gehman, « The Arabic Bible in Spain , » Speculum,  
vol . 1 ( 1926 ) , 221 .

M. Hume , The Spanish people , 105 . (١٣)

H. Farmer , Historical Facts , 23 . (١٤)

وانظر ملحق - ١ - في اخر البحث .

فثورندايك يخبرنا انه دهش لعثوره على اعمال لكتاب عرب في مخطوطات تعود الى القرن الحادي عشر الميلادي فسي المتحف البريطاني (Additional 17 , 808) ويستطرد الكاتب فيقول انه عاد فلمس الاثر العربي فسي مخطوطات اخرى في باريس تعود الى القرن العاشر الميلادي . (١٨) ويذكر ديفد نوبل ان المفكرين العرب سلموا الى اللاتينية جزءا كبيرا من تراثهم الخاص بالاضافة الى نقلهم الفكر الاغريقي الى الغرب عن طريق الترجمة . ويؤكد الكاتب المذكور ان ابن سينا لم يكتف بكشف ارسطو الى اوربا فحسب ، بل بما هو اصيل في نواح عديدة وخطيرة من المنطق والميتافيزيقا مما اثار اهتمام المفكرين والفلاسفة المتأخرين ، بما فيهم القديس توماس فجعلهم يضعونه مع العلماء الاوائل Classic (١٩) . واما ابن رشد فهو لا يقل عن ابن سينا اثرا في الفكر الاوربي اذ قام بترجمة ارسطو الى اللغة العربية وعلق على فلسفته واستنبط مبادئه واسسا جديدة كانت مثارا لنقاش الفلاسفة والمفكرين في اوربا ، وكانت اكسفورد ، بادو ، وباريس ترسل مترجميها ونسخها ليقوموا بنقل الكتب والاعمال العربية الى اللغة اللاتينية . (٢٠) وكذلك الحال بالنسبة الى ابن حزم الاندلسي ، اذ كانت اعماله معروفة وتعاليمه منتشرة في بادو حتى زمن لوثر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ) . (٢١)

ان الذي يهمنا في بحثنا هذا هو ما كتبه الفلاسفة العرب المذكورون في موضوع الحب . فقد كتب ابن سينا رسالته المشهورة في العشق ، وكتب ابن حزم كتابه المعروف طوق الحمامة في الالفة والالاف وظهرت في دنيا العرب كتب وفصول اخرى تبحث في الموضوع نفسه ، ويستشهد كاتبوها باشعارهم او باشعار مشاهير شعراء الحب . وسوف نتعرض بصورة تفصيلية للراء والتحليلات والافكار التي جاء بها العرب في هذا المجال ونقارنها بما اثنى به مفكرو الغرب في الموضوع نفسه ، وذلك لمعرفة الاصيل والمنقول وللدلالة على الاثر الذي تركه السابق في اللاحق حين ترجم ذلك السابق وهو التراث العربي الى اللغات الغربية ثم تداخل وتلاحم باثارها وادابها ، حتى ان الشاعر فقد جاء في Inferno , n , 144 ما يلي (٢٢) :

Aristotle , like a downy butterfly , is fringed  
with the Arabian border of Averros .

كما ان تمبر Tempier اسقف باريس احتوى اعمال ابن رشد مع اعمال المفكرين والفلاسفة الاوربيين ضمن لعنته المشهورة عام ١٢٧٧ ، اذ كانت تلك اللعنة موجهة ضد الذين يشرون بوجود حقيقتين : حقيقة يعرفها المفكر والفيلسوف ، واخرى يعرفها رجل الدين . ويعتقد كتاب القرب ان فلسفة ابن رشد تكمن وراء الكتب الملعونة . ومنها كتاب اندريس عن الحب ، ذلك الكتاب الذي اعتمد الاساس القائل ان الحب امر طبيعي صالح ومشرف ان قيس بمقياس الايطالي العظيم دانتي نظر الى ارسطو وابن رشد بمنظار واحد وصنفهما على صعيد متماثل وذلك في عمله الخالد الكوميديا الالهية . العقل ، وان الحب امر محرّم ومفسد ان قيس بمقياس الدين ، (كان

### — التهمة على الصفحة ٦٤ —

- L. Thorndike , History of Magic and Experimental Science , 698 . (١٨)  
D. knowels , The Evolution of Medieval Thought, (١٩)  
193 .  
M. Hume , Spanish Influence on English Literature , 11 - 12 . (٢٠)  
J. Kelly , A History of Spanish literature , 12 . (٢١)  
O. Manelstan , « Talking about Dante , » (٢٢)  
Delos ( 1971 ) , 65 .

حكماؤنا القدامى ؟ ا يوجد بينهم من الهب قلبه حب الانجيل والانبيا الاولين ؟ لا تكاد تجد في المجتمع المسيحي واحدا من كل الف قادرا على كتابة رسالة لاخيه . المسيحيون يجهلون لسانهم وانعرق اللاتيني لا يفهم لغته . كل شبانا قد اطلع وتعلم وتشف بالفصاحة العربية . كلهم فراوا ودرسوا وناقشوا العربية باهتمام وجد ، انهم يشرحون ويعبرون عما في اللغة العربية من جلال ، ويتقنون ويتنمون بالقافية الواحدة وباخر ما انجحه اللسان العربي من اغان . (١٥)

ان ما ذكره اسقف قرطبة عن شف الاوربيين بالشعر والغناء ما هو الاجزاء من ظاهرة عامة سادت المجتمع الاوربي في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد . فقد اخبرنا تايمون فيدال احد التروبادورز ان شف الناس وتهالكهم على الشعر ونظمه وفهمه يكاد ان يكون عاما بين جميع طبقات المجتمع ، الى حد يدفع الجاهل بالشعر الى التظاهر بمعرفته لكي يجاري التيار والتمط الساندين . يقول فيدال في هذا المجال :

كل الناس من مسيحيين ويهود وعرب ، اباطرة وامراء وملوك ودوقات وكونتات ، نبلاء ورجال دين وكل المواطنين الاخرين عظماء وبسطاء، قد استهواهم وشغل افكارهم وسيطر على عقولهم حب الشعر والغناء ، حتى لا يسمع السامع الذي لا يفهم شيئا منها الا ان يتظاهر بالفهم . (١٦)

وغني عن القول في هذا الباب ما وصلت اليه الحضارة العربية وما ابتدته الفكر العربي انذاك في كل علم وفن ، ولا سيما فن الشعر والغناء ، حتى ليخيل الى الفارئ ان ما ذكره التروبادور فيدال لم يكن الا صدى للظاهرة التي وصفها القزويني في كتابه اثار البلاد واخبار العباد حيث يخبرنا ان الشف والولوع بالشعر والقدرة على نظمه قد تجاوزت الخاصة الى العامة وشملت الفلاح في حقله والامير في قصره . يقول القزويني واصفا احدى مدن الاندلس: من عجائبها ما ذكره خلق لا يحصى عددهم انه قل ان يرى من اهلها من لا يقول شعرا ولا يتعاطى الادب ، ولو مرتت بالبحرath خلف فدانه وسألته الشعر لقرض في ساعته اي معنى اقترحت عليه ، واي معنى طلبت منه صحيحا . (١٧)

ان تفوق الفكر العربي وانتشار اللغة العربية وشمولها ، مع ما ذكره عن ولوع الناس بالشعر والغناء عامة ، والعربي منهما خاصة لدلائل وقرائن تجعلنا نرجح احتمال تسرب الافكار والآراء العربية الى القرب تسريا مباشرا ، لا سيما وموضوعنا هو الحب ، باعث الشعر والغناء وقوامهما وفحواهما .

قلنا ان التيارات الفكرية والمظاهر الحضارية تتسرب وتنقل من شعب الى شعب ومن بلد الى اخر بطريقة مباشرة او بطريقة غير مباشرة او بكتنيتها معا . اما المباشرة فقد ذكرنا صورها وانوارها . واما الطريقة الثانية التي يحتمل ان تكون الافكار العربية قد نقلت بها الى القرب فهي الترجمة .

ومن العلوم ان الترجمة من العربية الى اللغات الاوربية كانت شائعة انذاك . فقد تم نقل معظم المؤلفات والاعمال العربية الى تلك اللغات . ويجد المرء فيما اورده كتاب القرب شواهد تؤيد ذلك .

Farmer , op . cit . , 8 . (١٥)

H. J. Chaylor , The Troubadours , 122 (١٦)

(١٧) اثار البلاد واخبار العباد ، ٥٤١ .

## الحب بين تراثين

تابع المنشور على الصفحة ٦

هناك حقيقتين متناقضتين « كما يقول اسعف باريس لاعنا . (٢٢) .

لم تكن اسبانيا وما جاورها من مدن ومقاطعات هي المركز الوحيد الذي انطلقت منه اشعاعات الفكر العربي الى اوربا ، فنحن نعلم ان العرب فتحوا سيسيليا في اوائل القرن الثامن الميلادي ، وان الجزيرة عادت الى ايدي النورمانديين سنة ١٠٧١ م . ولكن البلاط فيبارمو بقي محتفظا بطابعه العربي . ففي عهد فردريك الثاني ( ١١٩٤ - ١٢٥٠ ) كان باستطاعة المرء ان يجد هناك مترجمين يفاوضون رواب ضخمة ويعملون على ترجمة الكتب العربية ، كما يشاهد المرء كثيرا من الموسيقيين والرافصين العرب في مواسم الاعياد والحفلات . وكان فردريك نفسه كما كان ابنه مانفريد من بعده من اكبر المتحمسين للعربية ، وقد وجها اهتماما كبيرا للعلوم والفلسفة الاسلامية حتى تسربت تلك التعاليم في زمنهما الى المدن الايطالية المجاورة . (٢٤) ويستطيع المرء ان يجد في روما نفسها وفي السجلات البابوية التي ترجع الى القرن الثامن والتاسع الميلاديين ما يؤيد ان العرب كانوا يزودون روما بما تحتاجه في مناسباتها الكنسية من اقمشة وملابس كهنوتية . (٢٥)

ويبدو للباحث في هذا الحقل ان الشباب في اوربا كانوا يحسون الروح العربية مؤمنة زاخرة متونة جياشة حولهم على الارض التي يعيشون عليها ، وفي الكتب التي يقرأونها والاغاني التي يصفون اليها ، والحكايات والقصص التي يسمعونها من الصليبيين الراضين الى الشرق والعائدين منه . ويبدو ان تلك الروح قد استهوت هؤلاء الشباب - كما استهوى الوازع الديني اخرين - الى زيارتها والحج اليها . فنحن حين نقرأ ترجمة حياة التروبادور جوفري رودال نجد الدليل على صحة ما نقول . يذكر الكاتب السذي يروي قصة رودال ما يلي :

كان جوفري رودال رجلا نبلا ، وامير بلدة سليا ، أحب كونتيسة طرابلس ، ولم يكن قد رآها ، أحبها من الأخبار الدهشة التي سمعها عن جمالها وكمالها من أفواه الحجاج الاتيين من انطاكية ، وقد نظم الأشعار في حبها. ثم دفعته الرغبة في رؤيتها الى حمل الصليب والسفر عبر البحر. فمرض من شدة الحب والشوق مرضا كاد يؤدي بحياته وهو على ظهر السفينة ، وظن شدة اساه انه سيموت قبل ان يراها . ولكن الركاب على ظهر تلك السفينة نجحوا بحمله الى حانة في طرابلس وهو في رفقته الاخير . وكانت الكونتيسة قد سمعت بخبره فهرعت الى زيارته وهو على فراش الموت ، واخذته بين ذراعيها ، فادرك انها هي حبيبة القلب ، وصلى شاكر الرب الذي امد في حياته ومكنه من رؤيتها قبل موته ، ومات وهو بين ذراعي الحبيبة . فأمرت بان يكون له جناز محترم ومدفن في المعبد ثم أرخت قناعها حزنا عليه . (٢٦)

ان التروبادور الذي عاش الحياة العربية في بلده وفوق ارضه ، ثم عاشها في قصة حبه الفتاة الطرابلسية لا بد ان يقول الشعر عربيا بالروح والمعنى وان لم يكن عربي الكلمات . وهناك ايضا قصة

Denomy , op . cit . , 155 . (٢٢)

A. R. Nicholson , A Literay History of the Ara- (٢٤)  
bs, 441 .

Farmer , op . cit . , 9 . (٢٥)

chaytor , op . cit . , 44 - 45 . (٢٦)

حياة وليم التاسع كونت بواتيه وهو اول تروبادور وجدت له اشعار مكتوبة كما أسلفنا . كانت لوليم هذا علاقات وتيفه بدينا العرب . فبلدته بواتيه كانت في يوم من الايام ساحة لحرب بين الفرنسيين والعرب ( ٧٢٢ م ) . وزوجته الثالثة هي الملكة الشابة فيليبيا من بلدة اراكون في اسبانيا مركز حضارة العرب في اوربا ، ولا يستبعد كما يذكر المشرق المعروف نيكل - ان تكون الملكة الشابة قد جلبت في ركابها حاشية وهفتين على علم باشعار العرب واغانيهم . (٢٧) ولا يستبعد ايضا ان يكون حب الاشعار والاغاني العربية وراء حمل وليم التاسع الصليب وذهابه مجاهدا على رأس حملة الى الشرق ، اذ ان دانسة المعارف البريطانية نخبرنا ان وليم التاسع كونت بواتيه قاد جيشا فوامه ثلاثمائة الف رجل في حملة صليبية الى الشرق ، وغاب مدة ثمانية عشر شهرا ، عاد بعدها من ياقا خاسرا الحرب ومزودا بفن الفناء وفن الحب . (٢٨) ومن جهة اخرى فان دائرة المعارف الاميركية نخبرنا ان اهم ما تميز به شعر وليم التاسع هو مخاطبة الحبيبة بكلمة ( سميدي ) مستعملا ضمير الذكر ، وهو اول حدث من نوعه في تاريخ الشعر الاوربي . (٢٩) ونحن نعلم جيدا شيوع مثل هذا الاستعمال في شعرنا العربي .

نعود الى كلمة تروبادور نفسها ، فالكلمة مشتقة من الفعل تروبر Trober واصل الفعل مشكوك فيه ، فالبعض يقول انه لاتيني ، والبعض الاخر يذكر انه فرنسي ولكن قاموس اكسفورد The Oxford English Dictionary يخبرنا ان القولين يشكلمان صعوبة . وهذا ما يشجعنا على طرح فكرة كون الكلمة مأخوذة من اصل عربي . (٣٠) فان ( طرب طربا ) هي بمعنى اهتز واضطرب فرحا او حزنا ، ومعظم مشتقات الكلمة ومزیداتها كالترب والطروب والمطراب والترب تسبق مع الفناء والموسيقى .

حين نتحدث عن الطرب والان ، يجرننا الحديث الى الاثر الذي تركه الطرب العربي في الموسيقى والفناء الاوربيين من الناحيتين العملية والنظرية كما يقول الكاتب الانكليزي هنري فارمر المختص بهذا الحقل . يقول فارمر ان التأثير العربي في الموسيقى الغربية قد نوقش واثبت في السنين الاخيرة ، وذلك من الناحيتين العملية والنظرية . اذ ان الموسيقيين الغربيين تبنا الآلات الموسيقية المستعملة لدى العرب كالعود Lute وغيرهما ، وكذلك اخذوا والرباب Repec عن العرب طريقة العزف على تلك الآلات . (٣١)

اما المشرف على كنيسة ويستمنستر Westminster Abbey فيؤكد الاثر الذي تركه العرب في معظم مظاهر الحياة الاوربية ، اذ يقول انه من المحتم مع ما يفظه العرب من روح التعليم ، وما عرفناه عن الترفيع العربي وعلم المثلثات والفلسفة العربية ، ان يكون الغرب قد تأثر بفن العمارة والرياسة العربية . ويستطرد الكاتب المذكور فيؤكد وجود نوع جديد من الزخرفة والرياسة لا يمكن ان تكون الا عربية اسلامية الطبيعة ، وذلك في الاقواس الموجودة على العمارات الانكليزية . اما في فرنسا فلا زالت حتى الان ابواب خشبية مقوسة تحمل زخارف من الخط الكوفي ، تلك الزخارف الكوفية التي انتشرت حينذاك في انكلترا . (٣٢)

A. R. Nykle , Hispano-Arabic Poetry, 375 . (٢٧)

The Encyclopedia Britannica , vol . 27 , 309 . (٢٨)

The Encyclopedia Americana , vol . 28 , 784 . (٢٩)

(٣٠) غوستاف فون غرنباوم ، دراسات في الادب العربي ، تر .

احسان عباس ، ٢١٦

H. Farmer , Al-Farabi's Arabic - Latin writing (٣١)

w. R. Lethaly , « Medieval Architecture , » In the (٣٢)

Legacy of the Medieval Ages , 64 .

بقي ان نقول شيئاً واحداً في ختام هذا الفصل ، وذلك ان كان الفكر العربي الاسلامي قد ترك آثاره في اوربا على العلم والفلسفة والفن والموسيقى ، فلا بد ان تكون الامثلة والمقارنات التي سنوردتها في الفصول الآتية ونحاول ان نثبت بها اثر الادب العربي في الادب الاوربي صحيحة ، وفي الوقت نفسه لا بد ان يكون الحب الذي غنّسناه التروبادورز ومدرساتهم هو نفس الحب الذي تفتى به العذريون ومن قال الشعر في مدرستهم .

## ٢ طبيعة الحب

دراسة مقارنة بين النرائين العربي والاوروبي

الحب الذي نتحدث عنه في بحثنا هذا هو العشق الذي تسامى على ان يكون استهلاكا جسديا فكان انصهارا روحيا اعطى هذا العطاء السخي من الشعر الرفيع الذي تفتى به الانسان - ولا يزال - عبر القرون . هذا الحب كان دافعا حمل المفكرين بعد الشعراء على تأليف الكتب وكتابة المقالات وطرح الاحاديث بغية تحليله ودرسه وتعريف الناس به ووضع القواعد والاصول له . اما في اوربا فان اقدم محاولة من هذا النوع ظهرت في كتاب الفه باللاتينية رجل كنسي فرنسي هو اندريس دي جابلن Andreas Capellanus ، وقد ترجم الكتاب الى الانكليزية تحت عنوان The Art of Courtly Love ويرجع ان يعود تاريخ تأليف الكتاب المذكور الى القرن الثالث عشر الميلادي . (٢٢) وكتاب اندريس هذا يتناول الحب من جميع نواحيه ، فيحاول الكاتب تعريف الحب وشرح اسبابه ودواعيه واعراضه واثاره على المحبين ، وهو يضع له حدودا واصولا وقواعد ، ويفرض عقوبات على المخالفين لتوانينه والكافرين به . ويعتبر النقاد المعاصرون هذا الكتاب محاولة لاستنباط قوانين للحب الذي كان التروبادورز قد مارسوه فعلا وعبروا عنه قولا في اشعارهم . فيقول وليم دور :

ان ذلك الحب كان نظاما system وان الافكار الواردة في شعر التروبادورز هي اساس ذلك النظام ، كتاب اندريس ما هو الا محاولة شبه علمية لارساء قوانين وقواعد لما مارسه التروبادورز والعشاق الآخرون المعاصرون لهم في دنيا الحب. (٢٤)

هذا في اوربا ، اما في البلاد العربية ، فقد كتب الكثيرون في موضوع الحب ، وظهرت مقالات وفصول وكتب تبحث في العشق ومسبباته واثاره واحكامه وما قيل فيه وما كتب عنه . ومنها رسالة ابن سينا في العشق ، وطوق الحمامة في الالفه والالاف لابن حزم الاندلسي ، وكتاب الزهرة لابي بكر محمد بن داود الاصفهاني ومصارع العشاق للسراج ، وتزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق للانطاكلي ، هذا بالإضافة الى ما جاء من حكايات العشاق واخبارهم في معظم كتب التراث كإفغانى الاصفهاني ، وامالي القالي ، وخرزانه ابن عمر البغدادي وغيرها . هذه الكتب معظمها سابق لكتاب اندريس الذي كتبه عن الحب ، كما ان الاشعار والامثال والحوادث التي استشهد بها مؤلفو تلك الكتب وبنوا عليها آراءهم كلها سابقة لاشعار التروبادورز واخبارهم . ومن يطلع على كتاب اندريس ويدرس ما ورد فيه من آراء وافكار فلا بد ان يدرك مدى التشابه والتماثل بينها وبين ما جاء في الكتب العربية المذكورة ، لا سيما وان المعاني في النثر التجريدي اكثر وضوحا واقرب الى الفهم منها في الشعر . لذلك سنبدأ بعقد مقارنة في هذا الباب مبتدئين باندريس وابن

Lewis, op. cit.

(٢٣)

W , Dodd , Courtly Love in Chaucer and Gower , 15 (٢٤)

سينا ، ثم نعد الى مقارنة فكرة الحب كما عبر عنها التروبادورز والشاعر الانكليزي جوسر الذي نظم الشعر بنفس التراث ، (٢٥) بما جاء في اشعار العذريين ومن نحا نحوهم في الجزيرة وبفداد والاندلس ، من جهة اخرى .

يقدم اندريس كتابه الى صديقه المحترم ولتر ليكشف له شيئا من امر الحب . (٢٦) ويقدم ابن سينا رسالته الى صديقه الفقيه المصري بغية ايضاح القول في العشق . (٢٧) ويستطرد الكاتبان فيعالجان الموضوع ويتكلمان عن نوع من الحب متميز بظاهرة التناقض فهو حب حسي وروحي في آن واحد . هو حب جسدي ولكنه يهذب المحب ويجعل روحه بالنيل والمرودة . يعرف اندريس الحب بأنه الرغبة في امتلاك الجمال الجسدي الظاهر حين تراه . فالرؤية من قبل المحب والجمال المرئي من قبل المحبوب هما منطلقا الحساب الاول والثاني . اما المنطلق الثالث فهو كون العاشق شابا سليم البصر والبصيرة ، مترفعا عن النهم الحيواني ترफها يجعل حبه مصدر نبيل وغنى للنفس . يقول اندريس في هذا المعنى :

الحب معانة يسببها النظر ( والتأمل ) الى جمال الجنس الاخر . فحين يبصر الرجل المرأة اللانفة لحيه ، وانصورة كما ينطلب ذوقه ، يشتهيها قلبه في الحال . وكل منا يتعرض للاصابة بهم الحب ، الا من كان شيخا كبيرا او اعمى ، او كان ذا شهوة عمياء . (٢٨)

ويرسم اندريس الحدود التي يجب على المحب ان يلتزم بها وان يتمتع ضمنها بحبه ، تلك الحدود التي تسمح بالقبلة والعناق وتحرم ما عداها . فان اتبع المحب تلك الشروط كان حبه شريفا ومشرفا في آن واحد ، وان تعداها فان حبه لا يعدو ان يكون شهوة حيوانية . يقول اندريس مفسرا :

انه الحب الظاهر الذي يوثق قلوب المحبين ويملاها غبطة ، هذا الحب الذي قوامه التأمل الفكري والميل القلبي ، وهو يسمح بالقبلة والعناق ويستغني عن اللذة النهائية ، اذ لا يسمح بها لمن يحب حبا طاهرا عفيفا . (٢٩) ويستطرد اندريس قائلا :

هذا هو الحب الذي يجب ان يصبو الجميع اليه بكل قلوبهم ، لانه حب يزيد على الايام بلا نهاية ، ولا يندم اهله ، هذا الحب متميز بكونه فضيلة وداعية الى اكتمال الشخصية . (٣٠) اما اثر الحب في تهذيب العاشق واكتمال خلقه وشخصيته فقد خصه اندريس بأكثر من حديث في كتابه . فهو يخبرنا ان الحب هو الينبوع والمصدر لكل الاشياء الخيرة ، ولولاه ما عرف الانسان معنى اللطف والمجاملة والتظرف courtesy ويستطرد اندريس فيقول :

ان الحب يحول الرجل الفظ الغليظ الى ظريف لين العريكة ،

(٢٥) انظر علاقة جوسر بالتروبادورز في :

Lewis , in Shoeck, ed. 16-33 , Dodd, op. cit. , 129-

207 , T. kirby, Chaucer's Troilue, 121-246 ,K. young, «Ch-

aucer's Troilus and Criseyde as Romance, » PMLA, L 116

( 1938 ) , 38-63 , Demony , op. cit. , 35-46 , and D.S.Br-

ewee, « Love and Marriage in Chaucer's Poetry, » Mode-

rn Language Review , XIX ( 1254 ) , 461-640

Andreas Capellanus, The Art of Courtly love .8. (٢٦)

(٢٧) رسائل ابن سينا ، ج ٣ ، « رسالة في العشق » ، ١ .

Andreas, op. cit. , 29-32. (٢٨)

Ibid. , 122. (٢٩)

Ibid. , 122. (٣٠)

وزود الرجل الفصيح المنتسبا بالخلق النبيل ، ويجمل المنكير بالتواضع ، وان المحب لقادر على البذل ، مستعد لاسداء المعروف لاي كان من الناس ، ومن كان صحيح الحب فلا يمكن ان يكون شرها طامعا . (٤١)

ويخبرنا الكاتب في مكان اخر من كتابه عن رجل سافط الهمة ردي السلوك نبذته النساء ، احب امرأة حبا صادقا والى في مرضاتها، ولم يلبث ان تحول بفضل الحب الى شخص كامل الخلق ممتاز السلوك ، واصبح محمودا لدى الجميع . (٤٢) وواضح ان اندريس في وصفه الحب وذكر اصوله وقواعده وحدوده ، انما يتحدث عن الحب خارج نطاق الزواج ، وهو يقول صراحة : « لقد اعلنا ، ونحن نتمسك بما اعلناه ، ان الحب لا يمكن ان يمارس سلطانه بين زوجين. » (٤٣) ثم يثبت ذلك القول كقاعدة اولى بين قواعده . (٤٤)

تلك هي صورة موجزة للراء التي قدمها اندريس في كتابه « فن الحب » والذي ألفه في القرن الثالث عشر الميلادي باللغة اللاتينية كما اسلفنا . فاذا عدنا الى ابن سينا ( ٩٨٠ - ١٠٣٧ ) وقرأنا رسالته في العشق ادرنا التشابه بينه وبين اندريس في معالجة موضوع الحب حتى ليخيل الى القارئ ان رسالة ابن سينا كانت النموذج الفلسفي الذي اقتناه اندريس ونسج على منواله. فرسالة ابن سينا تتكون من سبعة فصول تتحدث عن وجود العشق وسريانه في جميع الموجودات . فالموجودات كما يقول ابن سينا « اما ان يكون وجودها بسبب عشق فيها، واما ان يكون وجودها هو العشق بعينه. » (٥٥) ويخصص ابن سينا الفصل الخامس من رسالته للحديث عن « عشق الظرفاء والفتيان للوجه الحسن . » ويستشف من هذا الموضوع نفسه ومن الشرح الذي يتلوه ان الحب الذي يتحدث عنه الفيلسوف العربي في هذا الفصل هو حسي وروحي في وقت واحد . فالعاشق هو الفتى الغريف العاقل الذي يهيم بالجمال حين يراه ، اذ يقول ابن سينا :

ان من شأن العاقل الولوع بالنظر الحسن من الناس ، وقد يعد ذلك منه - في بعض الاحياء - ظرفا وفتوة . (٤٦) اما الاحيان التي يعد فيها العشق ظرفا ومروءة فتحدد بما هو مستحب ومستساغ في دنيا الحب ، وذلك بنظر ابن سينا يكون بالسماح للعاشق بالعناق والتقبيل وبتحريم ما سواهما ، وبذلك يكون الحب عشقا لا فسقا ، ويسمو على الشهوة الحيوانية واللذة المحرمة ويعتبر ظرفا وداعية للمروءة والفتوة . يقول ابن سينا في هذا الباب :

وعشق الصورة الحسنة قد تتبعه امور ثلاثة : احدها حجب معانقتها ، والثاني حجب تقبيلها ، والثالث حجب مباضعتها . فاما حجب المباضعة فمما يتعين عنده ان هذا العشق ليس الا خاصة بالنفس الحيوانية . (٤٧) وحجب المباضعة كما يسميه ابن سينا « لا يستساغ الا لرجل في امراته او في مملوكته » وذلك بقصد « توليد المثل . » ويستطرد ابن سينا شارحا :

واما المعانقة والتقبيل ، فاذا كان الغرض منهما هو التقارب والاتحاد ، وذلك لان النفس تود ان تنال معشوقها بحسها

اللمسي كليلها له بحسها البصري ، فليسا بمنكرين في ذاتهما ، ولكن استتباعهما امورا شهوانية فاحشه توجب التوقي عنهما ، الا اذا تيقن من متوليها حمود الشهوة والبراءة من التهمة ... لا الهيم بالفحش والفساد . فمن عشق هذا الضرب من العشق فهو فتى ظريف ، وهذا العشق ظرف مروءة . (٤٨)

وواضح هنا ايضا ان الحب الذي يتحدث عنه ابن سينا في رسالته والذي تستساغ به القبله والعناق ويحرم الاتصال الجنسي، انما هو حب خارج نطاق الزواج . فتتبن نظم جيدا ان مشاهير شعرائنا العشاق انما سببوا بتساء من عندهم لسبب او اخر واصبحن زوجات لرجال اخرين ، فليلي وبشينة وعزة ولبلى الاخيلية وعفراء واسماء وغيرهن كلهن زوجات طمرت اسماء ازواجهن وشهرت اسماء عشاقهن وهم فيس وجميل وكثير وتوبة وعروة والمرقش والصفة . ولو حدث ان تزوج العاشق من معشوقته كقيس بن ذريح ولبنى ، فلا تلبث اسباب فاهرة ان تقوم فتحمله على طلائها ، فيعود عاشقا منزولا باكيا، ويفضي محروما من وصلها . (٤٩)

يتبين مما رأينا ان الحب الذي تحدث عنه ابن سينا في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي يماثل الحب الذي عاد اندريس الى الحديث عنه وذكر مميزاته في القرن الثالث عشر الميلادي ، اذ ان الرجلين يصفان نوعا متميزا من الحب الذي يستساغ فيه النظر واللمس والعناق والتقبيل وما سواهما من ملذات الجسد ، مع التحلي بفسط النفس والاحتفاظ بالعفة كشرط اساسي يجعل العشق مهلبا للعاشق ودافعا يسمو بروحه الى الكمال . ومن الجدير بالذكر هنا ان ابن سينا لم يكن الوحيد بين الذين كتبوا عن الحب من العرب مؤكدين اثره الفعال في تهذيب الخصال وتزكية الروح ونمو الشخصية . فقد ذكر ابن حزم الاندلسي ( ٩٩٤ - ١٠٦٤ ) في كتابه طوق الحمامة ان من علامات الحب « ان يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعا قبل ذلك . فكم من بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تظرف ، وجاهل تادب وتفل تزين » بفضل الحب . (٥٠) وذكر السراج في كتابه مصارع العشاق قول احد الحكماء ينصح تلامذته قائلا :

اعتشقوا، فان العشق يطلق لسان العبي، ويفتح حيلة البليد، ويبعث على التنظيف وتحسين اللباس وتطبيب الطعام ، ويندو الى الحركة والذكاء وتشرف الهمة ، وايامهم والحرام . (٥١) ويروي الكتاب العرب قصة الملك وابنه الخامل . والقصة لا تختلف في جوهرها عما اورده اندريس عن الرجل الذي رفع الحب شأنه . اما الحكاية التي برويها العرب فتقول انه كان لاحد الملوك ولد ساقط الهمة فاسد الاخلاق لا يصلح بحال من الاحوال لان يكون وريث العرش وملك الوري . وكان الملك يعرف هذه الحقيقة عن ابنه. ففكر فيما يمكن ان يصلح من شأن الامير ، وعرف ان العشق وحده يفعل هذا ، فسلط على ابنه اجمل بنات المدينة يجتمعن به ويتحدثن اليه ، حتى احب الامير احدهن حبا صادقا جملة يعاو همة ويتصف باخلاق الملوك . (٥٢) ويتحدث الانطائي عن الحب قائلا ان « اقل مزياه تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الاخلاق . » (٥٣)

(٤٨) المصدر نفسه ١٦  
(٤٩) اغاني الاصفهاني ، ٨ ، ٢١٨ وما بعده ، امالي القاني ، ٢٤ ، ٢١٦ وما بعده ، وتاريخ الادب العربي ، لشوقي ضيف ، ٣٦٤ .  
(٥٠) طوق الحمامة لابن حزم ، ٢١ .  
(٥١) مصارع العشاق ، للسراج ، ٢١ - ٢٢ .  
(٥٢) المصدر نفسه ، ٢٢ - ٢٣ .  
(٥٣) تزيين الاسواق الانطائي ، ٦ .

(٤١) Ibid. , 172.  
(٤٢) Ibid. , 3.  
(٤٣) Ibid. , 106.  
(٤٤) Ibid. , 184.

(٤٥) ابن سينا ، المصدر المذكور ، ٥  
(٤٦) المصدر نفسه ، ١٥ .  
(٤٧) المصدر نفسه ، ١٦ .

وتبلغ به العفة مبلغا يجعله يشعر بالخجل من مجرد فكرة تجول بخاطره وتزين له وصل ليلي ، فهو يقول :

واني لاستحيك ان تعرض المنى بوصلك او ان تعرضي في المنى ليا (٦٢)

ونقرا في تراثنا قصة العاشقين اللذين امضيا الليل بالحديث والنجوى ، حتى اذا طلع الفجر قاما للصلاة . ويذكر ان اعرابيا سئل مرة : ايسرك ان تظفر بمن تحب ؟ قال : نعم ، قيل له : فما كنت تصنع بها ؟ قال : اطيع الحب في لثمتها ، واعصي الشيطان في اثمها . اما جواب العذري الدال على عفة حبه فمشهور . اذ سئل عذري يوما عن سبب موتهم من الحب ، فقال : ذلك لان في نساءنا صباحة وفي فتياتنا عفة . (٦٣)

ان تلك القصص والاخبار والاشعار ومثيها كثير لم تكن لتقتنع الاخرين - سواء اكان ذلك في دنيا العرب ام في اوربا - بدغة هذا العيب . فقد اوردنا في الفصل الاول من هذا البحث خبر اللعنة التي اصدرها اسقف باريس سنة ١٢٧٧ م بحق كتاب اندريس ، لان الاسقف اعتقد ان كتاب اندريس عن الحب مفسد للاخلاق ومسيء للدين . وقصص حياة التروبادورز انفسهم ترينا الشيء ذاته . فقد احب برنارد زوجة فايزكونت فاننادورن الجميلة ونظم الشعر والاغاني في حبا . وحين امرك زوجها ذلك ، شك في براعة هذا الحب وعفته ، فنفسى برنارد خارج ارضه ، واضطر الشاعر العاشق الى الرحيل الى نورمانديا ولم يعد الى وطنه بعد ذلك . (٦٤) وهناك قصة تروي عن زوج دفعته الفيرة والشك الى قطع لسان التروبادور الذي نظم الشعر بزوجه ، وقدمه طعاما لتلك الزوجة من حيث لا تدري ، وذلك انتقاما من العاشقين حين ارتاب الزوج في سلامة علاقتهما . (٦٥)

وحين نقرا ادبنا العربي وكتب تراثنا نجد اشياء مماثلة تدل على ارتياب الاخرين وشكوكهم بطبيعة هذا الحب . فاخبار جميل بن معمر تشير الى ان رهط بشينة انما كانوا يلاحقون جميلا ويترصدون خطاه لا لنسيبه وتشبيهه بها فحسب ، بل لشكهم بطبيعة العلاقة التي تربطها . اذ ان الاصفهاني يخبرنا عن ثفانه ان ابا بشينة واخاها سمعا يوما ان جميلا عندها ، فأتياها مشتبهين على ستينين ، فرأياه جالسا حجرة منها يحدها ويشكوها بته ، واستمر الاخ والوالد يستمان الى احاديث العاشقين حتى تيقنا من طهرهما وسمو علاقتهما عن الفحش والمنكر ، وحينذاك قال ابوها لاختها : « قم فما ينبغي لنا بعد اليوم ان نمنع هذا الرجل من لقائها » . ولكن شكواوى الزوج الفيور واحاديث الناس تفاقمت ، مما دعا اهل بشينة الى استصدار امر من الحاكم يهجر دم جميل مما اضطر جميلا الى ترك الوطن والمسير الى مصر حيث قضى هناك . (٦٦) وقد اهدر الحكام والامراء دم مجنون ليلي وقيس بن ذريح وعروة العذري وغيرهم من العشاق لنفس السبب . (٦٧) ويخبرنا القالي في اماليه ان ليلي حبسية نوبة بن الحمير اقبلت على الحجاج يوما وقد استت ، فسألها الحجاج وبقية شك لما نزل في نفسه رغم عشرات السنين :

— فهل رايت منه شيئا تراهينه ؟

قالت ليلي :

— لا والله الذي اسأله ان يصلحك ، ما رايت منه شيئا حتى فرق

الموت بيني وبينه . (٦٨)

هذا بعض ما ذكر في اثر الحب على العاشق وقوة مفعوله في رفع شأنه واعلانه . اما موضوع العفة في الحب فقد كان موضوع شك وريبة لدى البعض ، الامر الذي دعا الشعراء العشاق انفسهم الى الدفاع عن حبهم محاولين تكذيب من حاول الاساءة الى ذلك الحب . اما التروبادورز فقد اكدوا سلامة علاقاتهم مع حبيباتهم وكذب ادعاءات الجهلاء والمتقولين . اذ يخبرنا التروبادور ماركابرو ان هناك نوعين من الحب ، احدهما طاهر صحيح ، والاخر زائف سقيم ، وان حبه كان ولا يزال من النوع الاول . يقول التروبادور في احدي قصائده :

اقولها ، وقد قلتها مرارا ، وسوف اقولها ان الحب الصادق العفيف والحب الزائف لن يلتقيا ، وان احدهما ليصرخ ضد الاخر . (٥٤)

اما جوفري رودال فهو تروبادور اخر يشناق لرؤية حبيته وسماع صوتها ، ويعتبر النظر والسمع اعظم لذة ينالها ، فهو يقول :

ان كان يرضيها ، فسوف اكون قريبا منها ، ولو من بعيد ، وسيكون بيننا الحديث المسول الذي يعتبره المحب اعظم متعة ينمناها . (٥٥)

ويعد برنارد دي فاننادورن الى توبيخ الجهلاء الذين يظنون بالحب سوا ، بينما حبه خير ودائم لانه عفيف . يقول برنارد :

ينتقد الجهلاء الحب ويعيبونه جهلا به ، ولا ضرر من الحب الذي لا يبلى ابدا ما دام عفيفا . (٥٦)

اما الشاعر الفرنسي كراتين دي ترويز الذي كتب بنفس التراث ، فقد جعل بطل قصته لانسوليت ينحني امام فراش حبيته جنيفرويتسبد ، وحين يتركها نائمة ويخرج ، يدخل الى اقرب كنيسة فيصلي . (٥٧) حين نعود الى تراثنا العربي نجد امثلة واحاديث كثيرة تؤكد العفة والظفر في الحب سواء اكان ذلك في اقوال الشعراء ام غيرهم . فجميل يدافع عن طهر حبه بشينة مؤكدا انه لم يمسه يوما بريية . يقول جميل وهو على فراش الموت :

انا في اخر يوم من ايام الدنيا واول يوم من ايام الآخرة ، فلا نالنتي شفاعة محمد ان كنت وضعت يدي عليها بريية قط ، وان اكثر ما كان مني اليها اني كنت آخذ يدها واضعها على قلبي فاستريح اليها . (٥٨)

ويؤكد جميل ذلك في اشعاره اذ يقول :

لا والذي تسجد الجباه له مالي بما تحت ثوبها وطر ولا بفيها ولا هممت بها ما كان الا الحديث والنظر (٥٩) ويقول حين تفرقا في الصباح وكانا قد امضيا الليل معا :

وكان التفرق عند الصباح عن مثل رائحة العنبر خليلان لم يقربا ريبة ولم يستغفا الى منكر (٦٠)

ويؤكد المجنون ان لوامه انما يلومون جهلا ، فهو محروم من الاستمتاع بحبه :

يلومونني في حب ليلي ولم ائل على اللوم في ليلي حراما ولاحلا (٦١)

Denomy, « Fin Amors, » Medieval Studies, VII (٥٤)

( 1,46 ) , 14.

Ibid. , 165.

(٥٥)

Bernard De ventadorn, The Songs of Bernard, 82 . (٥٦)

Lewis, The Allegory of Love, 22-30 . (٥٧)

(٥٨) السراج ، نفس المصدر ، ٢ ، ٣١١ .

(٥٩) ديوان جميل بشينة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٥٤ .

(٦٠) نفس المصدر ، ٥٥ .

(٦١) كتاب الزهرة لابن داود ، ٧١ .

(٦٢) الانطaki ، نفس المصدر ، ٨٢ .

(٦٣) نفس المصدر ، ٩ - ١٠ .

(٦٤) Bernard, op. cit. , 30.

(٦٥) Chaytor, op. cit. , 75.

(٦٦) الاصفهاني ، نفس المصدر ، ٧ ، ١٥٢ وما بعده .

(٦٧) نفس المصدر ، ٨ ، ١٠٨ ، السراج ، نفس المصدر ، ٢ ،

٢٨٧ ، الانطaki ، نفس المصدر ، ٥٦ .

(٦٨) القالي ، نفس المصدر ، ٨٧ .

في النقاء والظهر. (٧٥) ولكن من الجهة الأخرى نجد صادق جلال  
العظم يهاجم العذريين فيقول أن الحب العذري هو حب شهواني في  
أصله ، ورجسي في موضوعه ومنحاه ، ويستطرد العظم فينجي باللائمة  
على هذا الحب وحكاياته التي تمجد « الحب خارج نطاق الرابطة  
الزوجية ولا تؤاخذ العاشقين على حبهما الزاني . » (٧٦)

ولا يسعني في ختام هذا الفصل ، وأنا أو من بمثابة الحب إيمان  
العذريين ورهطهم ، أقول لا يسعني إلا أن أرى على قادحي الحب  
وشائثيه بقول للشاعر الإنكليزي جوسر ويقول آخر لشاعرنا المتنبي . أما  
جوسر فيقول رداً على الذين يذمون الحب محاولين أن يشوبوا صفاه  
وجماله ما معناه : ماذا بضمير الشمس أن عجز مرضى العيون عن رؤية  
صوتها الساطع :

What is the sonne wers , of kynde right  
Though that a man of feeblesse of his eyen  
May nought endure on it to see for bright ? (٧٧)  
( 11 , 860 - 63 )

أما المتنبي فيشمل في بيت واحد من أبياته المشهورة جميع الذين  
اعتادوا ذم الأشياء جهلاً بها وعجزاً وتقصيراً عن فهم حقيقتها لئلا فيهم  
لا في الأشياء التي يذمون . وبيت المتنبي يقول :  
ومن يك ذا فم من مريض يجد مرا به الماء الزلالا (٧٨)

— البقية في العدد القادم —

(٧٥) الحب العذري للجوّاري، ٢٥ ، تاريخ الأدب العربي لشوقي  
صيف ، ٢٥٩ ، والحب المثالي عند العرب ، ليوسف خليف ، ١٩ ،  
٥٢ .

(٧٦) في الحب والحب العذري لصديق العظم ، ١٠٨ - ١٠٩ .  
Geoffrey Chaucer, The Book of Troilus and Cri- (٧٧)  
seyde , ed , R . K . Root ( All the Chaucerian poetic  
references are taken from this source ) .

(٧٨) ديوان المتنبي ، ٢ ، ٤٢٩ .

وعد دفعت الفيرة والشك زوج عزة إلى أن يقسم عليها بستم كثير  
حين علم أنها فابلته ، ففعلت ذلك مضطرة ، وقال كثير حين علم  
الخبر :

يكلفنا الفيران شتمني وما بها هواني ، ولكن للملك استذلت  
هنيئاً مريئاً غير داء مخامسر لعزة من أعراضنا ما استحللت (٦٩)

أما خير أم البنين ووضاح اليمن فيعطينا صورة قاسية لما تحمله  
هؤلاء الشعراء العشاق نتيجة الشك والارتياب . فقد كانت للشعراء  
المذكور علاقه حب بأم المؤمنين زوجة يزيد بن عبد الملك بن مروان ،  
وأحست الزوجة يوماً بفرق وصول زوجها إلى غرفتها حين كان الشاعر  
عندها ، فاضطرت إلى إخفاء الحبيب في صندوق لها . وكان الزوج قد  
علم من بعض الوشاة بخبر الحبيب والصندوق الذي اعتاد أن يختفي  
فيه ، فأمر بحمل الصندوق ودفنه بما فيه ، ولم يسمع خبر عن الشاعر  
الوضاح بعد ذلك . (٧٠)

مما رأينا يتبين لنا أن الحب الذي عبر عنه التراثان الإديبان في  
أوروبا وفي بلادنا العربية كان مثاراً لآراء متناقضة من قبل معاصريه  
وذلك بسبب طبيعته المتناقضة . فمن الناس من ينظر إليه من جانبه  
الروحي فيمجده ويشي عليه كعاطفة شريفة ومشرفة ، ومنهم من يعتبره  
فسقاً وفحشاً مستديساً للدين والدنيا ، وذلك بالنظر إلى جانبه  
الجسدي . هذا في القديم . أما في عصرنا الحديث فليست الحال  
بخير مما كانت عليه قبل أجيال ، إذ تختلف نظرة النقاد والأدباء في  
القرن العشرين إلى ذلك الحب ويتناقض مفهومهم له في أوروبا وفي  
عالمنا العربي على السواء . فنحن نقرأ للكاتب الإنكليزي لويس قوله في  
تمجيد حب التروبادورز : « أن لم يكن ذلك الحب ديناً ، فهو على كل  
حال نظام خلقي . » (٧١) ونقرأ للشاعر الأميركي أندا باوند أقوالاً  
تمجد التروبادورز وتجعلهم أنصاف آلهة . (٧٢) في حين يشك آخرون  
في سلامة ذلك الحب ويستبعدون أن يلتقي حبيبان ويتلامسا ويتعانقا ،  
ويقبل أحدهما الآخر ثم يعفا . ويعتقد الكاتب الأميركي بنتن أن ذلك  
الحب لا يعدو أن يكون نوعاً من الزنى ، ويقترح حذف التعبير الذي  
يدل عليه Courtly love من قاموس الأدب . (٧٣)

هذا في الغرب ، أما في دنيا العرب الحديثة وعلى الرغم من قلّة  
ما كتب عن هذا التراث ، فإن الذين كتبوا انقسموا بالرأي إلى فريقين  
أيضاً ، فطه حسين يمجّد الحب العذري في كتابه حديث الأربعماء  
ويتحدث عن شعر العذريين قائلاً : « هذا الفزل العفيف الذي هو في  
حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح البادية إلى المثل الأعلى في الحب من  
جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تقمر أهل مكة والمدينة من  
جهة أخرى . » (٧٤) ويتحدث يوسف خليف عن الحب العذري كمأساة  
تدور حوادثها بين عاشقين تسيطر على حبهما العفة والأخلاص والتوحيد  
والحرمان والطهارة ، وبأنه انتصار الروح على الجسد وهزيمة النفس  
الإمارة بالسوء أمام المثالية الخلقية التي يؤمن بها الشاعر العذري ،  
ويرى الجوّاري وشوقي صيف أن الفزل العذري غزل نقي طاهر ممتع

(٦٩) البغدادي ، نفس المصدر ، ٢ ، ٢٨١ .

(٧٠) الأصفهاني ، نفس المصدر ، ٦ ، ٨١ ، السراج ، نفس  
المصدر ، ٢ ، ١٩٢ .

(٧١) Lewis, op. cit. , 36.

(٧٢) E. Pound, The Spirit of Romance, 99.

(٧٣) J. F. Benton, « Clio and Venus, » in Newman,  
ed. , 40.

(٧٤) حديث الأربعماء لطف حسين ، ٢ ، ٢٣٨ .

## صدر حديثاً عذابات أحمد بن ماجد

للشاعر البحريني

يعقوب المحرفي

\*\*\*

## هنا الوردة . . هنا نرقص

للقصاص البحريني

أمين صالح

منشورات دار الآداب - بيروت

بالاشتراك مع أسرة الأدباء والكتاب في البحرين